مدخل إلى
أسفار موسى الخمسة

إنَّ الأسفار الخمسة الأُولى في الكتاب المقدَّس (تكوين، خروج، لاويِّين، عدد، تثنية) تُكوِّن وحدة أدبيَّة كاملة، وكانت تُدعى «الدُّروج الخمسة». وهذه الأسفار الخمسة المُستقلَّة كُتِبت كوحدة غير منقطعة في المُحتوى والتَّسلسُل التاريخيّ، إذ كلُّ سفرٍ لاحق يبدأ حيث انتهى السابق.

تُشير كلماتُ التكوين الأُولى «في البدء خلق الله...» (تك ١ :١) ضمنيًّا إلى حقيقة وجود الله أزليًّا، أو «قبل الزمان»، كما تُعلِن أيضًا الانتقال الدراماتيكيَّ إلى الزمان والمكان. وبينما لا يمكن تحديد التاريخ الدقيق للخَلق، فمن المؤكَّد أنَّه ينبغي تقديرُ حصوله قبل آلاف السنين، لا قبل ملايين السنين. ثُمَّ بدءًا من إبراهيم (حوالى ٢١٦٥–١٩٩٠ ق م) في تك ١١، يمتدُّ سفرُ البداءات هذا فوق ٣٠٠ سنة حتَّى وفاة يوسف في مصر (حوالى ١٨٠٤ ق م). ومن ثَمَّ تُوجَد ثغرةٌ أُخرى تُناهِز ٣٠٠ سنة حتَّى ولادة موسى في مصر (حوالى ١٥٢٥ ق م؛ خر ٢).

ويبدأ سفر الخروج بالكلمات «وهذه أسماءُ بني...» (خر ١ :١)، مُدرِجًا أفراد أُسرة يعقوب الذين نزلوا إلى مصر للإقامة عند يوسف قُبيلَ آخر سفر التكوين (تك ٤٦ وما يلي)، ثُمَّ إنَّ ثانيَ الأسفار الخمسة، وهو الذي يُسجِّل نجاة بني إسرائيل من مصر، يُختَتم حين تنزل السحابة التي هَدَتِ الشعب في البريَّة على خيمة الاجتماع المُنشأة حديثًا.

والكلمات العبريَّة الأُولى من اللاويِّين يُمكن أن تُترجَم «عندئذٍ دعا الربُّ موسى» (لا ١ :١). فمن سحابة الحضرة الإلهيَّة في خيمة الاجتماع (لا ١ :١)، استدعى الله موسى لكي يُمليَ عليه الشريعة الطقسيَّة التي بيَّنت لبني إسرائيل كيف يجب أن يقتربوا إلى الربِّ القُدُّوس. ثُمَّ يُختَم سفر اللاويِّين بالعبارة: «هذه هي الوصايا التي أوصى الربُّ بها موسى إلى بني إسرائيل في جبل سيناء» (لا ٢٧ :٣٤).

وعلى غرار اللاويين تقريبًا، يبدأ سفر العدد بتوصية الله لموسى في خيمة الاجتماع، وهذه المرَّةَ بإجراءِ إحصاءٍ استعدادًا لمحاربة الأعداء. وعنوان السفر في التوراة العبريَّة، يُمثِّل محتوياته بدقَّة: «في البريَّة». فبسبب الافتقار إلى الثِّقة بالله، لم يشأ بنو إسرائيل أن يخوضوا حربًا مع أعدائهم في سبيل امتلاك أرض الآباء. وبعد أربعين سنةً إضافيَّةً في البريَّة جزاءَ العصيان، وصل بنو إسرائيل أخيرًا إلى سهول موآب.

وعلى الرُّغم من حقيقة استغراق السَّفرة «أحد عشر يومًا من حوريب على طريق جبل سعير إلى قادش برنيع» (تث ١ :٢)، فإنَّ رحلة بني إسرائيل دامت أربعين سنة من جرَّاء عصيانهم لله وتمرُّدهم عليه. وقد ألقى موسى مضمون سفر التثنية كأنَّه عِظةٌ طويلة، في سهول موآب، إعدادًا لشعب الله القديم لأجل الدخول إلى الأرض التي وُعِدوا بها حسب العهد (تك ١٢ :١- ٣). وعنوان السِّفر بالعربيَّة ترجمةٌ لعنوانه في اليونانيَّة «ديوتيرُس نونوس» ومعناه «الشريعة الثانية». وهو يركِّز على تلاوة الشريعة ثانيةً، وإلى حدٍّ ما، على تطبيقها من جديد بصورةٍ تُناسب ظروف الشعب الجديدة.

وقد كان موسى هو الكاتبَ البشريَّ للأسفار الخمسة (خر ١٧ :١٤؛ ٢٤ :٤؛ عد ٣٣ :١ و٢؛ تث ٣١ :٩؛ يش ١ :٨؛ ٢مل ٢١ :٨)؛ ومن ثَمَّ أُطلِق على المجموعة عنوانٌ آخر هو «أسفارُ موسى». فعلى يد موسى، أعلن الله ذاته، وأعماله السابقة، وتاريخ بني إسرائيل، ودورَهُم في خُطَّته الخاصَّة بفداء البشر. والأسفار الخمسة أساسيَّة بالنسبة إلى باقي أجزاء الكلمة المقدَّسة.

لقد كانت الأسفار الخمسة أوَّل مجموعة موحًى بها من كلام الوحي، وهي مُقتبَسة أو مُشارٌ إليها في العهد الجديد آلاف المرَّات. وعلى مدى سنينَ كثيرة، كانت هي وحدها التوراة عند العبرانيِّين. والتوراة اسمٌ عامٌّ آخر أُطلق على هذا القسم من

كلام الوحي، وهي تسميةٌ تنظر إلى الطبيعة التعليميّة التي تُميِّز هذه الأسفار. فقد وجب على بني إسرائيل أن يتأمّلوا فيها (يش ١ :٨) ويُعلِّموها لأولادهم (تث ٦ :٤- ٨) ويقرأوها عَلَنًا (نح ٨ :١ وما يلي). وقُبيل وفاة موسى ودخول بني إسرائيل أرضَ الموعد، بيَّن موسى العمليّة التي بها تشقُّ قراءة الأسفار العلنيّة طريقَها إلى القلوب البشريّة وتُغيِّر علاقتهم بالله ثمّ سلوكهم في نهاية الأمر.

اجمع الشعب، الرجال والنساء والأطفال والغريبَ الذي في أبوابك، لكي يسمعوا ويتعلّموا أن يتّقوا الربَّ إلهكم، ويَحرِصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة. (تث ٣١ :١٢)

إنّ العَلاقات بين أجزاء هذه الوصيّة مُهِمَّة. فعلى الشعب: ١) أن يجتمعوا كي يسمعوا الشريعة فيتعلّموا ما هو مطلوبٌ منهم وما تقوله التوراة عن الله؛ ٢) أن يتعلّموا عن الربِّ لكي يخافوه على أساسِ معرفة صحيحة بشخصه؛ ٣) أن يخافوا الله لكي يُحفزوا حفزًا صحيحًا على الطاعة والأعمال الحسنة. فإنّ الأعمال الصالحة التي تؤدَّى لأيِّ سبب آخر ستكون ذات دافعٍ غير سليم. وقد علَّم الكهنةُ العائلاتِ الشريعة (مل ٢ :٤-٧)، وعلَّم الوالدان الأولاد في البيوت (تث ٦ :٤ وما يلي). وباختصار، فإنّ التعليم والتهذيب حسبَ الشريعة لا بدَّ أن يوفِّر الأساس الصحيح لعلاقة المؤمن بالله في العهد القديم.

ولأنّ معرفة بني إسرائيل بالعالم الذي عاشوا فيه جاءتهم من المصريّين، وأيضًا من أسلافهم في ما بين النهرين، فقد ساد لغطٌ كثير بشأن خلق العالم، وكيف انتهى إلى حالته الراهنة، وكيف برزت أُمّةُ بني إسرائيل إلى الوجود. وقد ساعد تكوين ١- ١١ الشعب على فهم أصلِ كلٍّ من الخليقة وطبيعتها، والعَمَلِ البشريّ، والخطيّة، والزواج، والقتل والموت، والتزوُّجِ بامرأتين معًا، والقضاء، وتعدُّد اللغات، والحضارات، إلخ. فهذه الأصحاحات رسَّخت تلك الرؤيَةَ إلى الكون التي فسَّرت باقيَ ما تضمَّنه أوَّلُ كتاب مقدَّس عند بني إسرائيل، أي الأسفارُ الخمسة.

أمّا الجزءُ المُتبقّي من التكوين فقد شرح لبني إسرائيل هُويَّتهم، بما فيها القصدُ الذي كان لدى الله من جهتهم بوصفهم شعبًا. ففي تك ١٢ :١-٣، ظهر الله لإبراهيم وأعطى وعدًا ثُلاثيًّا بإعطائهم أرضًا ونسلًا وبَرَكة. وبعد عدَّة سنين، في طقسٍ شبيهٍ بحضارة إبراهيم، أعاد الله صياغة الوعد الثُلاثيّ في عهد (تك ١٥ :٧ وما يلي). ويتناول باقي التكوين إتمام الوعود الثلاثة جميعًا، إنّما يُركِّز خصوصًا على النَّسل أو الذُرِّيَّة. فإنَّ عُقمَ كُلٍّ من زوجات الآباء المُختارات علَّم بني إسرائيل أهمِّيَّة الاتِّكال والاصطبار في انتظار أولاد من عند الله.

وأمّا باقي الأسفار الخمسة فينظر في الطريقة التي بها توسَّعت وعودُ تك ١٢ :١-٣ في العهد الإبراهيميِّ وحقَّقت مراحلها الأُولى من الإتمام. فسِفرا الخروج واللاويّين يُركِّزانِ بالأكثر على بَرَكة العلاقة بالله. ففي الخروج، يلتقي بنو إسرائيل إله آبائهم وهو يقودهم في مغادرة مصر ودخول أرض الموعد. وفي سفر اللاويّين تشديدٌ على حذافيرِ الأُصول التي وجب أن يُراعيَها الشَّعبُ والكهنة في اقترابهم إلى الله عند العبادة، وفي كلِّ بُعدٍ من أبعاد حياتهم. فالقداسة والطهارة تأتيان معًا في طُرقٍ بسيطة وعمليّة. وأمّا سِفرا العدد والتثنية فيُركِّزان على الارتحال والاستعداد لدخول أرض الموعد. وبينما تتطرَّق الأسفار الخمسة إلى كثيرٍ من المسائل ذاتِ الصِّلة بعلاقة الشعب بإلههم، فإنّ الموضوع الأساسيَّ في هذه الأسفار هو الإتماماتُ الأوَّليَّة المتكشِّفة لوعود الله التي قطعها لإبراهيم.